الباب الخامس والعشرون

في بَيان الأمورِ المضادَّة للصبر والمنافية له، والقادحة فيه

لما كان الصبر حبس اللسان عن الشكوى إلى غير الله والقلب عن السخط والجوارح عن اللطم وشق الثياب ونحوها كان ما يضاده واقعاً على هذه الجملة فمنه الشكوى إلى المخلوق فإذا شكى العبد ربه إلى مخلوق مثله فقد شكى من يرحمه إلى من لا يرحمه ولا تضاده الشكوى الى الله كما تقدم في شكاية يعقوب إلى الله مع قوله: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ (يوسف: ١٨، ٨٣) وأما أخبار المخلوق بالحال فإن كان للاستعانة بإرشاده، أو معاونته والتوصل إلى زوال ضرورة لم يقدح ذلك في الصبر، كإخبار المريض للطبيب بشكايته وإخبار المظلوم لمن ينتصر به بحاله وإخبار المبتلى ببلائه لمن كان يرجو أن يكون فرجه على يديه وقد كان النبي ﷺ إذا دخل على المريض يسأله عن حاله ويقول: «**كيف نجدك**»؟ وهذا استخبار منه واستعلام بحاله.

وأما الأنين فهل يقدح في الصبر فيه روايتان عن الإمام أحمد: قال أبو الحسين: أصحهما الكراهة لما روي عن طاووس أنه كان يكره الأنين في المرض وقال مجاهد: كل شيء يكتب على ابن آدم مما يتكلم حتى أنينه في مرضه قال هؤلاء: وإن الأنين شكوى بلسان الحال ينافي الصبر.

وقال عبد الله ابن الإمام أحمد: قال لي أبي في مرضه الذي توفي فيه: أخرج إليَّ كتاب عبد الله بن إدريس فأخرجت الكتاب، فقال: أخرج أحاديث ليث بن أبي سليم فأخرجت أحاديث ليث فقال: اقرأ عليَّ أحاديث ليث قال: قلت لطلحة إن طاووس كان يكره الأنين في المرض فما سمع له أنين حتى مات، فما سمعت أبي أنَّ في مرضه ذلك إلى أن توفي.

والرواية الثانية: أنه لا يكره ولا يقدح في الصبر، وقال بكر بن محمد عن أبيه: سئل أحمد عن المريض يشكو ما يجد من الوجع فقال: تعرف فيه شيئاً عن رسول الله ﷺ قال: نعم حديث عائشة: «وا رأساه» وجعل يستحسنه، وقال المروزي: دخلت على أبي عبد الله وهو مريض فسألته فتغرغرت عينه وجعل يخبرني ما مر به في ليلته من العلة.

والتحقيق أن الأنين على قسمين: أنين شكوى، فيكره، وأنين استراحة وتفريج، فلا يكره والله أعلم.

وقد روي في أثر: أن المريض إذا بدأ بحمد الله ثم أخبر بحاله لم يكن شكوى وقال شقيق البلخي: من شكى من مصيبة نزلت به إلى غير الله لم يجد في قلبه حلاوة لطاعة الله أبداً.

فصل [الشكوى]

والشكوى نوعان: شكوى بلسان القال، وشكوى بلسان الحال، ولعلها أعظمها ولهذا أمر النبي ﷺ من أنعم عليه أن يظهر نعمة الله عليه وأعظم من ذلك من يشتكي ربه وهو بخير فهذا أمقت الخلق عند ربه.

قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الله بن يزيد حدثنا كهمس عن عبد الله ابن شقيق قال: قال كعب الأحبار: ان من حسن العمل سبحة الحديث ومن شر العمل التحذيف قيل لعبد الله: ما سبحة الحديث قال: سبحان الله وبحمده في خلال الحديث قيل ما التحذيف قال: يصبح الناس بخير فيسئلون فيزعمون أنهم بشر.

فصل ما ينافي الصبر

ومما ينافي الصبر شق الثياب عند المصيبة ولطم الوجه والضرب بأحد اليدين على الأخرى وحلق الشعر والدعاء بالويل ولهذا برىء النبي ﷺ: ممن صلق وحلق وخرق. صلق: رفع صوته عند المصيبة وحلق رأسه وشق ثيابه ولا ينافيه البكاء والحزن قال الله تعالى عن يعقوب: ﴿وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾﴾ (يوسف: ٨٤). قال قتادة: كظيم على الحزن فلم يقل الا خيراً.

وقال حماد بن سلمة: عن علي بن زيد يوسف بن مهران عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال: «**ما كان من العين ومن القلب فمن الله والرحمة وما كان من اليد واللسان فمن الشيطان**».

وقال هشيم عن عبد الرحمن بن يحيى عن حسان بن أبي جبلة قال: قال رسول الله ﷺ: «**من بث فلم يصبر**».

وقال خالد بن أبي عثمان: مات ابن لي فرآني سعيد بن جبير متقنعاً فقال: اياك والتقنيع فإنه من الاستكانة وقال بكر بن عبد الله المزني: كان يقال: من الاستكانة الجلوس في البيت بعد المصيبة وقال عبيد بن عمير: ليس الجزع أن تدمع العين ويحزن القلب ولكن الجزع القول السيّئ والظن السيّئ.

وسئل القاسم بن محمد عن الجزع فقال: القول السيّئ والظن ومات ابن لبعض قضاة البصرة فاجتمع إليه العلماء، والفقهاء، فتذاكروا ما يتبين به جزع الرجل من صبره فأجمعوا أنه اذا ترك شيئاً مما كان يصنعه فقد جزع، وقال الحسين بن عبد العزيز الحوري: مات ابن لي نفيس فقلت لأمه: اتقي الله واحتسبيه، واصبري، فقالت: مصيبتي به أعظم من أن أفسدها بالجزع.

وقال عبد الله بن المبارك: أتى رجل يزيد بن يزيد وهو يصلي وابنه في الموت، فقال: ابنك يقضي، وأنت تصلي فقال: ان الرجل اذا كان له عمل يعمله، فتركه يوماً واحداً كان ذلك خللاً في عمله.

وقال ثابت: أصيب عبد الله بن مطرف بمصيبة، فرأيته أحسن شيء شارة وأطيبه ريحاً فذكرت له ما رأيت فقال: تأمرني يا أبا محمد أن أستكين للشيطان وأريه أنه قد أصابني سوء والله يا أبا محمد لو كانت لي الدنيا كلها ثم أخذها مني، ثم سقاني شربة يوم القيامة ما رأيتها ثمناً لتلك الشربة.

ومما يقدح في الصبر اظهار المصيبة والتحدث بها وكتمانها رأس الصبر وقال الحسن بن الصباح في «**مسنده**»: حدثنا خلف بن تميم حدثنا زفر بن سليمان عن عبد العزيز بن أبي رواد عن نافع عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «**من البر كتمانُ المصائب، والأمراض والصدقة**». وذكر: أنه من بث

فلم يصبر وروي من وجه آخر عن الحسن يرفعه: «**من البر كتمان المصائب وما صبر من بث**» ولما نزل في إحدى عيني عطاء الماء مكث عشرين سنة لا يعلم به أهله حتى جاء ابنه يوماً من قبل عينه فعلم أن الشيخ قد أصيب.

ودخل رجل على داود الطائي في فراشه فرآه يرجف فقال: إنا لله وإنا إليه راجعون فقال: مه لا تعلم بهذا أحداً وقد أقعد قبل ذلك أربعة أشهر لا يعلم بذلك أحد وقال مغيرة: شكى الأحنف إلى عمه وجع ضرسه فكرر ذلك عليه فقال: ما تكرر عليَّ لقد ذهبت عيني منذ أربعين سنة فما شكوتها إلى أحد.

فصل الهلع ضد الصبر

ويضاد الصبر الهلع، وهو الجزع ورود المصيبة، والمنع عند ورود النعمة قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾﴾ (المعارج: ١٩ ـ ٢١) وهذا تفسير الهلوع قال الجوهري: الهلع أفحش الجزع وقد هلع بالكسر فهو هلع وهلوع وفي الحديث: «**شر ما في العبد: شح هالع وجبن خالع**».

قلت: هنا أمران: أمر لفظي، وأمر معنوي، فأما اللفظي فإنه وصف الشح بكونه هالعاً والهالع صاحبه وأكثر ما يسمى هلوعا ولا يقال هالع له فإنه لا يتعدى ففيه وجهان: أحدهما: أنه على النسب كقولهم: ليل نائم وسر كاتم ونهار صائم ونوم عاصف كله عند سيبويه على النسب أي ذو كذا كما قالوا تامر ولابن والثاني: أن اللفظة غيرت عن بابها للازدواج مع خالع وله نظير.

وأما المعنوي: فإن الشح والجبن أردى صفتين في العبد، ولا سيّما اذا كان شحه هالعاً ـ أي ملق له في الهلع ـ وجبنه خالعاً ـ أي قد خلع قلبه من مكانه، فلا سماحة ولا شجاعة ولا نفع بماله ولا ببدنه كما يقال: لا طعنة ولا جفنة ولا يطرد، ولا يشرد بل قد قمعه وصغره وحقره ودساه الشح والخوف والطمع والفزع واذا أردت معرفة الهلوع فهو الذي اذا أصابه الجوع مثلاً أظهر الاستجاعة وأسرع بها وإذا أصابه الألم أسرع الشكاية وأظهرها واذا أصابه القهر

أظهر الاستطامة والاستكانة وباء بها سريعاً وإذا أصابه الجوع أسرع الانطراح على جنبه وأظهر الشكاية وإذا بدا له مأخذ طمع طار إليه سريعاً وإذا ظفر به أحله من نفسه محل الروح فلا احتمال، ولا أفضال وهذا كله من صغر النفس، ودناءتها وتدسيسها في البدن وإخفائها وتحقيرها والله المستعان.

□

obeikandl.com